المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية
رت م د إ: EISSN: 8506-2716
رت م د: ISSN : 2716-7984
المجلد06/ العـدد:01 (السنة2024)، ص ص 129- 136

الأوبئة وانعكاساتها على المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني (1830-1671)

Epidemics and their repercussions on Algerian society in the late Ottoman era (1830-1671)

محمد بن جبور
Mohamed Bendjebour
جامعة وهران1 أحمد بن بلة
bendjebourmed@gmail.com

Doi:10.53283/2157-006-001-008

تاريخ الاستلام: 2024/03/22 تاريخ القبول: 2024/03/31 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: يتناول هذا المقال الأوبئة والأمراض وانعكاساتها على المجتمع الجزائري خلال أواخر العهد العثماني، شهدت الجزائر في هذا العهد انتشارا واسعا للأوبئة التي كان مصدرها التجار والأسرى من البلدان المجاورة، ولقد أثر الوضع الصحي على الوضع الديمغرافي بعدما انتشرت عدّة أمراض وكوارث طبيعية كالجفاف، الجراد، الزلازل، ولقد كان مصدر هذه الأمراض والأوبئة المتفشية الدّول التي كانت ترتبط بالإيالة اقتصاديا وتجاريّا، فكانت السّفن الوافدة إلى المراسي الجزائريّة مصدرا هاما لانتقال الأمراض المعدية والأوبئة، التي تسبّبت في اختلال النّمو الدّيمغرافي وتراجع حركية الأنّشطة الاقتصاديّة، إضافة إلى تعرّض الإيالة إلى الكوارث الطبيعيّة كالفيضانات والجفاف، حملات الجراد و الزّلازل .

كلمات مفتاحية: الإيالة –الجزائرية – الدّايات – الأوبئة – الأمراض

Abstract:

This article deals with epidemics and diseases and their repercussions on Algerian society. During the late Ottoman era, Algeria witnessed in this era a wide spread of epidemics whose origin was merchants and prisoners from neighboring countries. The health situation affected the demographic situation after several diseases and natural disasters such as drought, locusts spread, Earthquakes, and the source of these rampant diseases and epidemics was the countries that were associated with the economic and commercial maintenance, so the ships arriving in the Algerian moorings were an important source of

transmission of infectious diseases and epidemics, which caused the disruption of demographic growth and the decline of movement Economic activities, in addition to the exposure Alaaalh to natural disasters such as floods, droughts, earthquakes, locusts and campaigns.

Keywords: Ayla - Algerian - Midwives - Epidemics - diseases

1. مقدمة :

ذكرت مصادر التاريخ بأن إيالة الجزائر كانت تتعرض من حين لآخر لحوائج، وأمراض وكوارث طبيعية وكانت تداعياتها جلية على المجتمع الجزائري. وذلك بتردي الوضع الصحي، الذي انعكس سلبا على المناحي الاقتصادية والديموغرافية، ما أدى بالإدارة العثمانية إلى إعماد سياسة لمواجهة الحوائج خلال مرحلة الدايات 1671-1830 بغية التقليل من آثارها السلبية .De Gramment. 1887) p268.).

نظرا لعدم دقة المعلومات والبيانات وكذلك الإحصاءات حول العدد الحقيقي لسكان الإيالة خلال أواخر العهد العثماني، فان عملية تحديد العدد تبقى تقريبية بناءا على بعض المصادر التاريخية المحلية والأجنبية،حيث قدر هايدو (Haedo) عدد منازل مدينة الجزائر باثني عشرة ألف ومائتي منزل وأن عدد سكان الإيالة كان لا يتعدى الثلاثة ملايين .(Haedo. 1871. p491.)في حين قدر خوجة في المرآة عدد سكان إيالة الجزائر بعشرة ملايين(حمدان بن عثمان خوجة. ص13). وأحصى فونور دي بارادي (Venture de Paradis) عدد سكان المحروسة بـ 50 ألف نسمة (Venture de paradis . 1983.p109.)والجدير بالذكر أنه على الرغم من هذا الاختلاف في تحديد عدد سكان مدينة الجزائر أو الإيالة فإن مصادر التاريخ قد أشارت بأن الجوائح التي تعرضت لها الإيالة خلال فترة حكم الدايات كانت لها آثار مباشرة على النمو الديمغرافي، حيث تراجع هذا النمو نتيجة كثرة الأموات خاصة في المدن الكبرى، كوهران عنابة وقسنطينة، إضافة إلى المدن الداخلية وبواديها(أبو العيد دودو. 1975.ص197)(أبو العيد دودو. 1975. ص197)

وخلال سنوات 1817-1818-1820 عرفت الإيالة تفشي عدة أوبئة خطيرة كوباء الطاعون، الذي انتشر في مدينة وهران، التي كان يموت فيها ما بين ثلاثين إلى أربعين جزائريا، ومدينة الجزائر كان يصل فيها عدد الأموات إلى مائتي ميت يوميا، وكان هذا الوباء يتجدد من حين لآخر حيث انتشر في مدن أخرى

كقسنطينة وعنابة(حمدان بن عثمان، ص136). وقد أشار حمدان بن عثمان خوجة في كتابه إلى أن وباء عام 1822 قد أدى إلى هلاك سدس سكان إيالة الجزائر (حمدان بن عثمان. ص136).

لم تقتصر الحوائج التي كانت تعصف بايلك الجزائر على الأمراض والأوبئة كالطاعون والحصى والجدري، ومرض العيون، بل كانت الإيالة تتعرض من حين لآخر كوارث طبيعية خلال هذه الفترة التاريخية وكانت الزلازل من أهم هذه الجوائح، كذلك عام 1716 الذي ضرب سواحل المتيجة كمدرسة الجزائر شرشال، وشمل حتى مدينة بجاية، وتكررت الهزات الأرضية في عام 1717، حيث تعرضت مدينة الجزائر لزلزال عنيف أدى إلى هلاك أعداد هائلة من سكانها قدرتها بعض الكتابات التاريخية بأكثر من عشرين ألف ميت (ناصر الدين سعيدوني. 1988. ص128). كما أشارت إلى تداعيات هذه الزلازل على المجتمع الجزائري وعلى الحياة الاقتصادية بصفة خاصة، حيث أشارت المصادر بأن الزلازل التي كانت تضرب المدن الجزائرية خلال القرن الثامن عشر كانت تؤدي إلى هجرة الفلاحية للأراضي الزراعية، مما يؤدي إلى نقص المحاصيل وندرة المواد الغذائية، وتعرض الجزائريين للمجاعة التي كانت تؤدي إلى تفشي الأوبئة والأمراض، بسبب نقص الغذاء.(Degramment, H. op.cit, p278)

مع تناقص عائدات الجهاد البحري، اعتمد الأتراك العثمانيون على نظام إقطاعي، أهملت من خلاله شؤون العامة، وأثقل كاهل الفلاحين بالضرائب فزاد الفقر، وتدنت الأحوال المعيشية والصحية، بسبب نقص الإنتاج الزراعي، وسيطرت الأرستقراطية التركية على أخصب الأراضي (مسلم عبد القادر الوهراني . 1974. ص130.(

هنا أدى هذا الوضع المتردي بالفلاح الجزائري إلى هجرة الأراضي الزراعية وامتهان صنائع أخرى هروب من الضرائب بعدما فقد الرغبة في العمل ومع تدني عائدات الجهاد البحري تناقصت التجارة الخارجية فانخفضت عائدات الخزينة، وضعفت القدرة الشرائية فتدنى الوضع الصحي في بايليكات الإيالة، ففي عام 1794 ذكرت المصادر التاريخية أن بايلك الشرق قد شهد ارتفاع الأسعار نتيجة قلة العرض، وأدى ذلك إلى حدوث المجاعة وتفشي الأمراض والأوبئة (ناصر الدين سعيدوني. ص 56.(

لقد دلت المصادر التاريخية بأن العامل الديمغرافي يرتبط بعلاقة جدلية مع الفاعل الاقتصادي، وبدورهما هذان العاملان يرتبطان أو يؤثران على الوضع الصحي، ذلك أن انتشار وتفشي الأمراض والأوبئة كان يؤدي في الغالب إلى هلاك السكان، وإتلاف المزارع، وتفشي الفقر، وازداد حجم الضرائب، وهجرة السكان إلى المناطق الجبلية خوفا من الوباء والعدوى (ناصر الدين سعيدوني. ص37.). خاصة عندما

اسم المؤلف: محمد بن جبور

عنوان المقال: الأوبئة وانعكاساتها على المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني (1671–1830)

كانت تتفشى بعض الأمراض والأوبئة كان مصدرها قوافل التجار والحجيج، والبحارة وفي بعض الأحيان الطلبة الذي كانوا يأتون من المشرق.

ذكرت الحسابات التاريخية بأن إيالة الجزائر كانت من حين لآخر تتعرض لاضطرابات مناخية، كالجفاف والفيضانات وزحف الجراد، بالإضافة إلى المستنقعات التي كانت منتشرة بقرب السهول الساحلية. كما أن الإيالة لم تكن تمتلك سياسة صحيحة لمواجهة هذه الجوائح، باستثناء بعض الحالات التي قام خلالها الباي محمد الكبير بالاهتمام بالطب وتشجيع الأطباء، وفرض الرقابة على القوافل والسفن والقيام بالحزام الصحي، والحجر لتلاقي انتشار العدوى.

وحيال هذه الأمراض والجوائح، وعدم اكتراث غالبية الحكام الأتراك بها، كان الجزائريون يلجؤون للتداوي بالطرق التقليدية (فتحية صحراوي. 2010-2011، ص39). سواء بالأعشاب علما بأن الإيالة الجزائرية ونظرا للتوسع البنى وشساعة المساحة، كانت تزخر بثروة نباتية هائلة، قدرت بأكثر من 3500 عشبة طبية لمعالجة الكثير من الأمراض (عثمان بوحجرة. 2015. ص68) وكانت هذه الأعشاب تستخدم كمادة سائلة، أو بخور، وكانت في الغالب ناجعة، خاصة العرعار، الزعتر، الكمون، القطران، البصل، زيت الزيتون، والمرهم الذي يصنعونه من عصارة شجرة الصنوبر (أرزقي شويتاح، 2005-2006. ص295) ، وكان الجزائريون يعاملون المرضى المصابون بالجدري، بعزل المرضى في بيوت معتدلة الحرارة، مع تقديم له التين المجفف والعسل (عبد الرزاق بن تمادوسن. 1983. ص84.(

لقد سادت في أواخر العهد العثماني معتقدات ترخست خاصة عند المتصوفة والمشعوذين، ومن بين هذه المعتقدات استخدام البخور لإبعاد الأمراض ومختلف الكوارث الطبيعية، وذلك بحرق الجاوي، واستنشاق بخاره، بالإضافة إلى استعمال الرماذ كمرهم لأجسام الصابين بالأمراض المعدية، كما كان سكان المدن يغلقون على أنفسهم الأبواب في أوقات الجوائح، حتى يتأكدون من زوالها(أرزقي شويتاح. ص292.(

وكان سكان تلمسان يحزمون أطراف القماش في أغصان الأشجار والأعشاب اعتقادا منهم بأنها طريقة لعلاج هذا المرض، كما كانوا يقدمون للمرضى سوائل مصدرها الأعشاب العشبية التي كانت عبارة عن خليط من الزعتر، والفيجل وبعض العقاقير، وكانوا يقومون بطلائها على مرضى الطاعون (عثمان بوحجرة. ص68.(

ولعلاج الحمى كان الجزائريون يستخدمون نبتة الكين، أو الكينة (دلندا الأرفتش. 2003. ص181) -ولقد أثبتت هذه المادة بنجاعتها في علاج أمراض الحمى (عبد الرزاق بن حمادوش. ص84)، وكان مصدر هذا الواء فستخرج من قشور أشجار الكين التي تنمو في المناطق الاستوائية، ولعلاج بعض الالتهابات الرئوية، كالسل كان الجزائريون يحرقون أغصان الدفلى ويستخدمونها كبخور، يستنشقها المرضى، كما كان الجزائريون يرغمون المصابين على المكوث في المنازلهم، ويمنعوهم من جلب المياه من العيون، أو الاتصال بهم، حيث طبق الجزائريون هذا الإجراء الاحترازي خاصة على المرضى المصابين بالكوليرا والتيفوس(دلندا الأرفتش، المرجع السابق. ص183). أما بالنسبة للرقية فلم تقتصر على البسطاء من الجزائريين فقط، بل كان الحكام الأتراك كذلك يجلبوان الرقاة لرقيتهم، كالباي حسن مثلا، حيث حرص على جلب أهل الدين والتقى حاملي كتاب الله، وبالإضافة إلى هذه الأساليب العلاجية، فقد اعتمد الجزائريون كذلك على زيارة المرابطين والأولياء الصالحين وفي اعتقادهم أن زيارة المقام يجلب لهم البركة، وتبعدهم عن الأمراض، وتشفيهم من الأوبئة، كما كان البعض يعلق التمائم والحروز التي كان يقوم بإعدادها طلبة القرآن الكريم (أبو القاسم سعد الله. ص418). ولقد اعتبر الجزائريون الحمامات المعدنية مراكز استشفائية وصحية، حيث كان العديد يلجأ إليها، لعلاج عدة أمراض مستعصية العلاج خاصة وأن هذه الطريقة من العلاج، اي العلاج بمياه الحمامات والينابيع الساخنة قد أثبتت فعاليتها في معالجة عدة أمراض، خاصة المياه الغنية بمعدن الكبريت.

وعليه فلقد اعتمد الجزائريون مع الحمامات المعدنية لمعالجة عدة أمراض وأوبئة كالحصبة، وعلى الرغم من عدم اهتمام العثمانيين بترميم مدن الحمامات إلا أن الجزائريين كانوا يتوافدون دائما عليها (أبو العيد دودو الجزائري. 1975. ص14.). وكان بعض الجزائريين لا يلجؤون إلى الاستطباب، لاعتقادهم بأن الوباء قضاء وقدر، وكانوا يرفضون تناول الدواء(أبو القاسم سعد الله،. ص417.(

لقد أشارت بعض المصادر التاريخية لأسماء بعض الأطباء الجزائريين خلال أواخر العهد العثماني، كعبد الرزاق بن حمادوش صاحب مؤلف كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب (ابن حمادوش ص9-10)، أبو راس الناصري الذي ثبت عن مرض الطاعون والجدري (مصطفى خياطي. 2013. ص127.(

وإزاء هذه الجوائح التي كانت تتعرض لها الإيالة الجزائرية في أواخر العهد العثماني والتي أثرت بشكل مباشر على الواقع الديمغرافي والاقتصادي، فإن الحكام الأتراك، وحتى الجزائريون قد بذلوا جهودا من

اسم المؤلف: محمد بن جبور

عنوان المقال: الأوبئة وانعكاساتها على المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني (1671-1830)

أجل مواجهة هذا الجوائح وكان أهم إجراء احترازي هو الحجر الصحي، أو الكرنتينة الذي اعتمدت عليه الإيالات المغاربية، والدول الأوروبية المجاورة، فكان الولاة يفرضون على المسافرين والحجاج، والتجار الحجر خاصة إذا كانوا يحملون أمراضا معدية.

وفي لسان المقان يذكر إن حادوش في رحلته أن الذيات كانوا يراقبون السفن التي تأتي من الخارج ويعرضونها للتفتيش ولا يسمح لها بالدخول حتى التأكد من سلامة طاقمها (ابن حمادوش. ص121) وأشار أحمد الشريف الزهار في مذكراته بأن الإيالة اعتمدت على نظام الكرنيتنة الذي لم يقتصر على السفن التجارية بل شمال قوافل التجارة (أحمد الشريف الزهار. 1974. ص151-152) ، حيث انتهج صالح باي النظام وطبقه على مدينة قسنطينة التي كانت ملتقى القوافل التجارية التي كانت تقدمت تونس وطرابلس وبسكرة كما قام بإصلاح الموانئ كميناء عنابة والقالة، كما أقام حزاما صحيا على مدينة عنابة.

لقد أشارت مصادر التاريخ التي كتبت عن الإيالة الجزائرية وأوضاعها الاجتماعية بأنها خلال الجوائح، كان الجزائريون يعيشون ظروفا عصيبة قل فيها لدواء وتفشى الداء، وكثرت الأموات وصعب على السلطة العثمانية التخفيف من حدتها، وأشار الغشري صالح إلى ذلك عندما ذكر في كتاباته "حصلت للناس شدة ومجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصا في بعض النواحي، فإنهم تشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل من يبس الزرع، وعدم الحرث، ونزول القحط والفتن إلى غير ذلك، مما لا يباح ..والحاصل بعد أن كان ذلك ارتفعت اسعار الحبوب إلا ما لا نهاية له...(العنتري صالح مطاعات قسنطينة. 1974.(

وعندما كانت تأتي السنين العجاف مع اشتداد التنافس الأوربي مع الجزائر، وظهور التحالفات الأوربية، كان دايات الجزائر يلجؤون إلى الزيادة في الضرائب التي أثقلت كاهل الفلاح الجزائري حتى أصبح عاجزا عن سدادها، وكان هذا بسبب شح الخزينة المالية نظرا لقلة مداخيل وعائدات الإيالة وكانت هذه من أبرز الأسباب التي أدت إلى ظهور انتفاضات شعبية وثورات كثورة الشريف الدرقاوي، وثورة ابن الصحري، التي أشار لها أحمد بن سحنون الراشدي في كتابه الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني(الراشدي أحمد بن علي بن سحنون. 1973. ص235.(

لقد سبقت الإشارة إلى أن ولاة الإيالة وباشواتها كانوا يلجؤون إلى أوقات تفشي الأمراض والأوبئة الخطيرة إلى أسلوب وقائي هو الحجر الصحي أو ما كان يعرف بالكرنتينة(Quarantaine ، هذا الأسلوب

الوقائي كان معمول به في أوربا، وهو عبارة عن احتماء من الوباء بالمكوث في البيوت، أو في مواقع مخصصة للمرضى الوافدين إلى الإيالة، سواء قوافل الحجيج، أو التجار الأوربيون وتجار المناطق المجاورة، بالإضافة غلى الأسرى، وهذا ما اشار إليه حمدان بن عثمان خوجة في المرآة الذي أشار بأن الاحتماء اشتهر في بلاد الإفرنج(حمدان بن عثمان خوجة، المرآة. ص79).

لقد اهتم وحرص حكام الإيالة بالحجر الصحي، واعتبروه أسلوبا وحيدا وناجعا لتلافي انتشار الأمراض والأوبئة، خاصة مرض الطاعون الخطير، حيث كانوا يأمرون بعزل المناطق المصابة وفرض الرقابة عليها وذلك بمنع الدخول والخروج منها (ناصر الدين سعيدوني. ص96). وذلك لتفادي انتقال العدوى، وانتشار المرض وتفشيه، من خلال وضع حزام صحي كذالك الذي أقامه صالح باي عام 1787 على مدينة عنابة، وأمر سكان مدينة قسنطينة بعدم الاتصال بتجار إيالة تونس كيلة فترة انتشار المرض والوباء، كما كان سكان الأرياف يلجؤون إلى المناطق البعيدة التي لم يصلها المرض، وكان الأسرى المسيحيون يلجؤون إلى المستشفيات الخاصة بهم، كمستشفى القالة الذي بنى عام 1674، ومستشفى الازاريس في مدينة الجزائر الذي موله لويس الثالث عشر(جميس كاتركارت. 1981. ص61.(

رغم شح المحاولات في إيالة الجزائر للتخفيف من حدة الحوائج، فإن بعض الحكام بادروا إلى بعض الإجراءات لمساعدة سكان الإيالة، وتخفيف الأضرار عنهم (الزهار.ص117)، خاصة عندما كانت تتعرض البلاد لحملات الجراد، أو الجفاف، وحتى الفيضانات فكان الحكام يؤمرون بتخفيض أسعار الحبوب، والزيادة في استيرادها وتكليف الانكشارية بحراسة المخازن الخاصة بها، كالإجراء الذي قام به باي قسنطينة عام 1820 عندما أمر بتخزين الحبوب إثر المجاعة التي تعرضت لها المدينة.

وقبل ذلك قام الداي مصطفى بالتخفيف من حدة الزلزال الذي تعرضت له مدينة الجزائر وضواحيها عام 1802، حيث أمر بإعادة بناء المسكان، ووزع اللباس والمال على سكان المناطق المتضررة (الزهار أحمد الشريف. ص83). وعليه فقد حاول بعض الولاة الأتراك بذل جهوجهم من أجل السكان الجزائريين، وإصلاح أحوالهم، بغية الحفاظ على أمن واستقرار الأوضاع الداخلية للإيالة (أبو القاسم سعد الله. ص77). والجدير بالذكر أن أغلب سكان الإيالة كانوا ينظرون للنكبات التي كانت تعصف لهم من حيث الآخر، بأنها غضب سلط عليهم من الله سبحانه وتعالى، بسبب كثرة المعاصي والذنوب، وأن هذه المصائب كانت لتكفير الذنوب لدرجة أن البعض كان يلجأ إلى عدم البحث عن أسباب العلاج والوقاية من الأمراض والتسليم للأمر الواقع.

اسم المؤلف: محمد بن جبور

عنوان المقال: الأوبئة وانعكاساتها على المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني (1671–1830)

قائمة المراجع:

- أبو العيد دودو الجزائري، مؤلفات الرحالين الألمان، 1830-1855، ش و ن الجزائر، 1975.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2.
- أحمد الشريف الزهار، مذكرات تح أحمد توفيق المدني، ط2، 1974، الجزائر.
- أرزقي شويتاح، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1819-1830. دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006-2005.
- الراشدي أحمد بن علي بن سحنون، الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني، تقديم المهلبي البوعبدلي، مطبعة البعث قسنطينة، 1973.
- العنتري صالح مطاعات قسنطينة، تح تق رابح بونار الجزائر ش و ن ت 1974،
- جميس كاتركارت، مذكرات قنصل أمريكا، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1981.
- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة تقديم وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط2، الجزائر.
- دلندا الأرفتش، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، ميدياكوم، تونس، 2003.
- عبد الرزاق بن تمادوسن، الجزائري لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983.
- عثمان بوحجرة، الطب والمجتع في الجزائر خلال العهد العثماني، مذكرة ماجستر، وهران، 2015.
- فتحية صحراوي، الجزائر في عهد الباي حسن 1818-1830، مذكرة ماجستير جامعة الجزائر، 2011-2010.
- مسلم عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق رابح بونار سلسلة ذخائر المغرب العربي، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- مصطفى خياطي، منشورات *A.N.E.P 2013*.
- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، م و د، الجزائر، 1988..

-De Gramment, H.Historie d'Alger sous la domination Turque (1515-1830) Ed Ernest Leaux, Paris, 1887.

-*Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, R.A, 1871.,*
- *Venture de paradis Tunis et Alger au 18 siècle Sidbad, Paris, 1983.*